كلام عن جغرافية العرب

لجناب دبتري افندي خلاط

ان علم الجغرافية من الذ العلوم طعماً واوداها قطوفاً وافيدها ثماراً تفتذي به الخاصّة وتتفكّه به العامّة فهو علمٌ للراغب في العلم وسمر لمحب السمر وراحةٌ للباحث وانيسٌ للجليس ولذلك التيت دلو البحث في بحر موضوعه الواسع

ولا اقصد في هذه الرسالة عروجاً الى اصل نبعه او تعمّقاً الى اروية جذوره فذلك مبحث يستغرق الوقت المديد ويصوغ حلّى من التأليف عراقيًا طولاً على باعي الضئيل القاصر فاخترت ان يكون موضوعي وقفاً على ما وهبه العرب من الابحاث والاكتشافات مبيناً فضلهم في استلامهم امانة هذا العلم من السلف ‘اليونان والرومان’ وردّها الى الخلف ‘الافرنج’ غير ناقصة الوزن بل راجحة بما اضافوهُ اليوم من معارفهم . واعتمد فيما اكتبهُ على قحول علماء هذا الفن مثل ملطبرون وكورتمبر وسديليو الذين قدحوا زناد البحث فناروا العالم بآرائهم وشمّروا عن ساعد الجدّ وهم في الغرب فكشفوا القناع عن كتب الشرق ونحن لاهون عنها باطراء عن صفاء او تجاه عن عداء كأنّ مقام العرفان موقوف على نفاثات الصدور

فلا يخفى على القارئ اللبيب ان الامم التي وسّعت نطاق الجغرافية في القدم واضاءت بنبراس الاقدام حالك الظلام ثلاث لهنّ شأن عظيم في التاريخ الفينيقيون فاليونان فالرومان فالاثنتان الاوليان بيلها للتجارة وحبها للاستعمار . فقد استعمر الفينيقيون ترسيس (وهي ترسوس في اسيا الصغرى على قول البعض وترسيس في غربي الاندلس على مذهب آخرين) وقادس (وهي كاديكس في شرقي اسبانيا) وقرطاجنة الشهيرة وغربي صقلية (سيسيليا) واستعمر اليونان شطوط ايطاليا وسموها اغريقيا الكبرى حتى بلغوا فرنسا وشيدوا مدينة مسّالا (مرسيليا) ناهيك عن سواحل اسيا الصغرى والبحر الاسود وقد بلغت مراكب الفينيقيين سواحل بريطانيا من الغرب وسواحل الهند من الشرق وخلفت اشرعة اليونان من عموميتي هرقل (جبل طارق) حتى شطوط القريم بالبحر الاسود ثم تلتها امّة الرومان تفتح البلاد بالسيف وتنهض العمران بالقلم وتملك البلدان بالابدان والابدان بالقلوب والقلوب بالخواطر والخواطر باسبابها من الرغبة والرهبة وايّدت راية العلم فانفرجت حلقة الخريطة الجغرافية

فلما تنكّس العلم الروماني وخبت نار العلم في معالم المغرب قيّض الله لامّة ذكية الطبع

ميراث الفتوح فاندفع العرب من بواديهم وشدّوا الرحال بهمة لا تبارى فامتلكوا ناحيتي المشرق والمغرب وسادوا من السند في الهند شرقاً حتى الوادي الكبير (غواد لكفير) في الاندلس غرباً ومن جزيرة صقلية (سيسيليا) شمالاً حتى جزيرة الزنج (زنجبار) وسرنديب (سيلان) جنوباً .

وكثيرون من بحريي العرب خاضوا خضم الظلمات (الاوقيانوس الاتلانتيكي) قبل ان شقّ عباب كريستوف كولمبوس ومن اشهرهم المغرورون وهو لقب أُطلق على ثمانية من اهل اشبونة (ليسبون) تعاهدوا على السفر سوية في بحر الظلمات ليكشفوا ماوراءه محيطو من المعمورة وبعد ان ساروا احد عشر يوماً غرباً واربعة وعشرين جنوباً قابلوا عدة جزر احداها كانت غنيّة بالغنم ولحمها مرّ المذاق حامض الطعم غير صالح للاكل وغيرها آهلة بقوم اخبروهم انهم يستطيعون السفر ايضاً ثلاثين يوماً في المحيط وبعدهُ ينكصون على اعقابهم وتحول الظلمات دون اقدامهم . فرجعوا من حيث اتوا يقصّون الغريب من الاخبار وظلّ ذكرهم محفوظاً باشبونة الى زمن ابن الوردي وكان احد شوارعها مدعوًّا بلقبهم "المغرورين"

وضرب بعضهم في بحر الهند والصين وازاحوا الستار عن بلاد عديدة وان شاب قصصهم سواد الخرافات . وفي مقدمة السياح الرحالة ابو زيد البلخي فقد جال ممالك اسيا القصوى من سنة ٨٥١ م حتى ٨٧٧ ووسع نطاق الجغرافية بوصفهِ بلداناً مجهولة قبله وفي غضونها ايضاً امر الخليفة الواثق بالله احد علماء الاسلام المدعو سلاماً المترجم ان يخوض بحر قزوين فسار فيهِ ومنهُ الى جهة الشمال وفي سنة ٨٤٦ م امر الخليفة المقتدر العلامة احمد بن فضلان بالسفر الى ملك بلغار ليعرب لهُ عن سنن مذهب الاسلام وكان بلغار اذ ذاك نازلين على ضفاف نهر اتل (فولكا) فألّف ابن فضلان كتاباً نفيساً اجاد بهِ الوصف عن اوائل تاريخ الامّة الروسيّة

ومن نكد الحظ ان كثيراً من كتب العرب تلفت واخفى عليها الزمان كما اخفى على كتب اليونان وما اتّصل الباحثون الى معرفة اسماء كتّابها سوى من نقل غيرهم عنهم واستشهادهم بهم

فمن الكتب العربية التي أتوت على نكبات الدهر كتاب مروج الذهب للمسعودي وكان هذا العالم واسع الاطلاع وافر الاسهاب في كتاباتهِ عن افريقية والهند واواسط اسيا وكان يصنف في سنة ٩٤٧ م ونوفاهُ الله بالقاهرة سنة ٩٥٧ م وقد ترجمهُ الى الفرنسوية رنودو

وظهر في القرن العاشر ابن حوقل صاحب كتاب المسالك والممالك وهو رحّالة هام وكاتب ظريف يسيل رقةً في روايتهِ ويجمد متانةً في سرد عبارتهِ وصف البلاد الخاضعة للاسلام وأنف من وصف بلاد النصارى والبحث عنها مطوّلاً واكتفى بذكرها موجزاً مستكبراً ان ينفق ثمين وقتهِ في وصف بلاد وحكومات كانت احط قدراً وابخس قيمةً واقلّ عمراناً وحضارةً من

الممالك الاسلامية وقد صرّح بذلك في كتابهِ فسبحان من يغير ولا يتغيّر وعسى ان يمنّ علينا باخضرار عود العمران وابتسام زهرة الحضارة انهُ القدير المنّان

ونبغ في القرن الثاني عشر الشريف الادريسي وألّف كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق شرح بهِ عن كرة ارضيّة صاغها للملك روجر الثاني (رجار العرب) من اللجين الخالص وطبع الكتاب المذكور بالاصل العربي في حاضرة رومة سنة ١٥٩٢ ثم ترجمهُ الى اللاتينية سوريان من الطائفة المارونية وعما جبريل الصهيوني ويوحنا الحصروني ونقلهُ الى الانكليزية العلّامة غرو مع خرائط مرسومة ثم اعتنى بوكوك الانكليزي حاملاً من القطر المصري نسختين عربيتين منهُ ونقل عنهُ الفصل الخاص بمكة المكرمة وقام الالماني هرتمان بعدهما وتوسع في شرح متن هذا الكتاب واثنى على الادريسي ثناء جميلاً

وكان مسقط رأس الادريسي في مدينة قرطبة من تحت عريق بالشرف وتخرّج في مدارس قرطبة وخرج منها للتأليف والتصنيف وقد وصف الارض بانها ممكنة شرقاً وغرباً ببحر الظلمات ودعا البحر المتوسط بحر الشام وافرّ بر الشام في وسط خريطتهِ وبشمال الخريطة بلاد يأجوج ومأجوج وجبل قوقاف وبشرقها طابة (تيبت) والصين وبجنوبها الهند واليمن وعمان وبحرهُ الاخضر هو خليج العجم وبحر القلزم (البحر الاحمر) وبحر الكرج (بحر قزوين). وذكر في اوربا بلاد الروس والجرمن والاندلس وبلاد رومة ومقدونية ووضع ارض مصر وتونس والمغرب بشمال افريقية وباواسطها جبال القمر النابع منها نيل مصر حسب زعمهِ وبغربيها بلاد نيل السودان (نيجر) وبجنوبيها مدغسكر وبلاد واق واق

وممّن نبغ في هذا القرن شهاب الدين ابو عبد الله ياقوت مصنف القاموس الجغرافي الشهير بمعجم البلدان والشيخ زكريا صاحب كتاب وصف البلاد وآثار الامم

واشرق في القرن الرابع عشر ابن الوردي وألّف في حلب كتاب خريدة العجائب وتحفة الغرائب ونظم في عقدهِ فرائد فوائد غالية الثمن لاسيما عن افريقية وبلاد العرب والشام ولا تزال خريطتهُ عن الارض محفوظة نسخها في المكتبة الملكية بباريز وهي مطابقة تمام المطابقة للخرائط الاولى التي برزت عند مجيء المغرب في بدء النهضة الاوربية الامر المؤيد لثبوت فضل العرب على ممدن اوربا . وقد عني ده غينيه الفرنسوي بترجمة بعض فقر هذا الكتاب الى لغتهِ ثم اعتنى العلامة لند واهتمّ بترجمتهِ كلهِ وكان معاصرًا لهُ حمد الله الفارسي الجغرافي المشهور

وعاش في اواخر القرن الثالث عشر واوائل الرابع عشر الملك المظفّر عماد الدين الكبير البارع والمؤرخ الشهير ابو الفدا امير حماه صنّف كتاب تقويم البلدان ووصف فيهِ مطولاً رسم الارض

ونهج فيه منهجًا حسنًا مبوّبًا اياهُ بحسب مواقع البلدان من المناطق ودرجات العرض والطول مستقلاً بالدور والتابعية حافظًا زمام المجاورة مستنكفًا نسق من سبقهُ من الذين كانوا يثبون من الغرب الى الشرق و يطفرون من الشمال الى الجنوب غير مبالين بما بين الامكنة من الابعاد الشاسعة . وذكر كل مملكة مستقلة في باب منفصل وبحث في مقدمتهِ عن الجغرافية الرياضية والبحور والانهار والجبال الشهيرة . وقد ترجمهُ الى اللاتينية العالم ريسكي وطبع كهلرسنة ١٧٦٦ الفصل الباحث عن برّ الشام لانها وطن ابي الفدا فنالت الحظ الاوفر من يانهِ بيد انهُ ماضنّ شرحًا عن بلاد العرب والفرس والقطر المصري والمغرب اي شمالي افريقية لكنهُ لم يشبع حديثهُ عن تركستان والصين خلافًا لما يرجى منهُ وكان يرتاح في التأليف الى جمع الحوادث وسردها والبعد عن الخرافات ما امكن لخلوّ في تلك الايام وتاريخهُ بجيل جدًّا في الفوائد الجغرافية وقد ترجمهُ رينو المذكور آنفًا الى الفرنسوية

وظهر البقوي في اواخرّ القرن الرابع عشر والف كتاب غرائب القدرة ومسقط رأسهِ مدينة بقو (باكو) بجوار بحر قزوين . ومن مشاهير القرن الرابع عشر الرحّالة ابن بطوطة ولد في طنجة وبارحها نحو سنة ١٣٢٥ فامّ برّ مصر والشام و بلاد العرب وملكة الروم الشرقية و بلاد التتر والفرس والهند والصين ثمّ بعودتهِ نحا الاندلس وعطف على افريقية بجول واحاتها وفيافيها حتى بلغ تمبكتو وكان راسخ العلم قوي الحجة يُكرَم ابن طُلْتْ ركابهُ و يُعظَّم ابن وطئتْ اقدامهُ تولّى القضاء مدة في مدينة دلهي وجزائر ملقا

ولو اردنا تعداد كتبة العرب الجغرافيين لضاق بنا المقام وتعذّر علينا الحصر فنقتصر على مَن ذكرنا . ومَن اطّلع على كتبهم عرف منزلة دولتهم ومرتبة علمائهم الذين اجادوا كل الاجادة في وصف الممالك الاسلامية والمعمور بعض الاماع عن ايرلاندة وانكلترة وباريس حاضرة الفرنجة و بلدة كيف في بلاد الروس . ومن الغريب انهم تحرّوا ما قارب التحقيق فيما اوردوهُ عن هذه الاماكن حالة كون بلاد أُخرى بجوارها ظلّت محجوبة عنهم ببراقع الخفاء

وكان معظم البلاد الافريقية المعروفة في زمانهم خاضعًا لحكم سلطانهم فضرب سائحوهم من سفالة في مشرقها حتى الرأس الابيض في مغربها وجزائر الخالدات الآهلة بقوم جرد اللحى حسب وصفهم . و يستدلُّ من كتاباتهم انهم عرفوا جزيرة نتريف بير الظلمات وتدعى عندهم جزيرة الخنزران وجزيرة قلهان وروّوس اهلها كالحيتان (ولعلها جزيرة كالبدونيا) وارض المستكّن الغاصّة بالافاعي (ولعلها جزيرة افيرزا عند الفرطجيين او ايرلاندة) وجزيرة الغنم وجزيرة اللقى ذات الاشجار العطرة ومنابت الصندل والعود . فحبذا لو حدّد العرب الابعاد بين هذه الجزائر

ليستطاع الجزم عن اماكنها ومسمياتها الراهنة فامتناعهم عن هذا الامر اوجب على الباحثين من المتأخرين التيه في قفار التخمين والزعم حتى استرسل بعضهم الى البحث عنها في اميركا مدّعين ان المغرورين السابق ذكرهم وطئوا العالم الجديد قبل كولومبس

ويتضح من كتابات الادريسي ان نهر صنعال مستمد اسمهُ من قبيلة صنهاج ووُجدت اوراق بجنوى محفوظة من القرن الثاني عشر تنبيء ان العرب عرفوا رأس بوياذر الذي وقف عندهُ البورتغاليون ونهر وادي المال هو نفسهُ نهر ريودي اورو الحالي

اما افريقية الشرقية من مصر حتى رأس كورنتس فقد دوّخها العرب من بدء القرن العاشر ورفعوا عليها اعلام مذهبهم وسوّددهم ودعوها باسماء لا تزال محفوظة حتى الآن وذكر جغرافيوهم مصر الى شمال السودان فالحبشة فالزنج (زنجبار) وان بلاد سفالة في الجنوب الشرقي ويخرج منها الذهب والحديد اما ارض واق واق المذكورة بجنوب بلاد سفالة فقد تعذّر على الباحثين الاستدلال عليها لما شاب وصفها من الاحاديث الغريبة من الخرافات البعيدة عن العقول

وذكر العرب كثيرًا من جزر بحر هركند او المحيط الهندي ولا ريب انهم نزلوا بجزيرة مدغسكر ويستدل على ذلك من سلالة عربية في بعض انحائها . واورد المسعودي ان على مرحلة يومين من بلاد الزنج (زنجبار) جزيرة تسمالو التي دان اهلها بالاسلام

وعيّن الادريسي موقع سرنديب او سرندة (سيلان) بجوار افريقية ذاهبًا في هذا الخطاء مذهب جغرافيي اليونان

وعرف العرب اكثر ممالك اسيا وشعوبها وزادوا من سلفهم فضلاً بوصف بعض بلدانها وكشف القناع عن المجهول منها وتوسعوا اسهابًا في قطر الشام و بلاد فارس وفتحوا باب جزيرة العرب لولوج اهل العلم فيهِ وكان مغلقًا قبل زمانهم وذكروا آلها وقبائلها من بدو وحضر بمنازلهم ومناجعهم و بواديهم وكنائهم وكثائبهم وحركاتهم وسكناتهم وبيّنوا مجلاه اقاليم اسيا الوسطى الواقعة الى شمال فارس والهند (المدعوة قديمًا بقطربان وترانسوكريان) وسادوا عليها ودانت بدينهم وعرّضوا بالكلام عن البلدان الواقعة شمال وشرق نهر جيحون وظلّت كتاباتهم عنها معتمدًا عليها الى عهد ناحتى حام النسر الروسي عليها وطار بوصفها الى منازل العلماء وسائر الآفاق فعلم ان كثيرًا من مدنها غدت دارسة الرسوم عافية الاطلال اسفها الدهر من باذخ رونقها اسفاف الرياح لرمال الكثبان

وما علم العرب سوى نزر يسير عن بلاد سيام وانام والجزر الواقعة وراء صومانرة وجاوة

لكن كتاباتهم عن البلدان الواقعة على شرقي البحر الاسود دقيقة التحري وقالوا ان سكانها من الصقالبة (السلاف) وان هنالك مدينة باب الابواب وسدًّا منيعًا وقد علم الروس ان مدينة دربت بجبل قوقاف هي نفسها مدينة باب الابواب واكتشفوا في القرن الماضي سورًا منيعًا ممتدًّا على مقربة منها كأنهُ خطٌّ اتصال

وخلط كثير من الكتبة سدّ مدينة باب الابواب بالسدّ الشهير حتى ان ابا الفدا نفسهُ لم ينجُ من هذه العثرة لكن الادريسي ابان موقع كل منهما بجلاء واتضح من مقابلة المصنّفات العربية وجوب وجود السدّ الشهير وراء نهر جيحون في عمالة بلخ واسمهُ سدّ باب الحديد بمقربة من مدينة ترمذ وقد اجتازهُ تيمورلنك بجيشهِ ودعا مؤرخهُ شرف الدين اسم المحل خلوجة ومرَّ بهِ ايضًا شاه روح وكان في خدمتهِ ومن بطانتهِ الالماني سيلدبرجر وذكر السدَّ في كتابهِ وذلك في اوائل القرن الخامس عشر وكذلك ذكرهُ الاسباني كلافيجو في رحلتهِ سنة ١٤٠٣ وكان رسولاً من ملك كستيل (قشتالة بالاندلس) الى تيمرلنك فقال ان سدَّ مدينة الحديد على الطريق الموصل بين سمرقند والهند

وقال ابو الفدا ان وراء جبل القوقاف بلد الصقلب واهله حمر الشعور ومن اعظم مدنها مدينة مخبوط (يزعم الجغرافيون انها مسكو) وتدعى تلك الاراضي الواسعة بلاد الروس وذكر غيرهُ مدينة قبنان (كيف الحالية) وقال انها حاضرة ملكهم وقالوا انَّ امَّة الخزر نازلة على ضفاف نهر الاتل (فولغا) وانهم تتريساكنهم بعض اليهود والنصارى والاسلام وعبدة الاصنام

واتفق سائر كتبة العرب على ان البلغار كانوا متاخمين للخزر وان عاصمتهم مبنيَّة على ضفة الاتل واسمها بلغار ولا تزال اطلالها بجوار مدينة سمبرسك تنطق عن سابق اهبتها . واحاط العرب علمًا بقفاس بحر الخزر (قزبين) وما غرب عليهم معرفة الانهار المتحدرة اليهِ والامصار الواقعة الى شماليهِ الآهلة ببدو من التتر انما قصرت معارفهم عن الامصار الشرقية من البحر المذكور على ماعطلهُ اليونان قبلهم من فتوحات الاسكندر (ستأتي البقية)

غاز جديد للبالون

ان غاز الهيدروجين الذي يملأ بهِ البالون عادةً قد يشتعل لانهُ قابل للاشتعال فيهلك من في البالون . ويقال ان احد قواد الانكليز اكتشف غازًا لا يحترق يتولَّد من حَرْق الخرق ويمكن ان يملأ البالون بهِ